٢١ القاسم الطيب
الإمام المختبئ

تفتحت كرامته وهو طفل صغير على نهاية عصر، وبداية عصر جديد. والبداية والنهاية لا تختلف أمام عينيه، بل أمام عيون كل من ينتسب لآل البيت.. هذا الطفل هو بعينه الذى أصبح فيما بعد الإمام القاسم الطيب.

لقد انتهت دولة بنى أمية، وأرسل الثوار إلى جده جعفر الصادق رسلا يسألونه البيعة ليصبح خليفة على المسلمين، فهو حق أجداده الذين سلبته بنو أمية. ولكنه رفض. فبايع الناس أبا العباس السَّفَّاح، حفيد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين، ومنهم جعفر الصادق، أى أن الخلافة عادت إلى أقرب المقربين.

وتولى أبو العباس الخلافة، والتف حوله المنافقون، الذين زينوا من قبل الاستبداد للحُكام الأمويين، وشرعوا لهم الظلم والطغيان، حتى إذا مات أبوالعباس مؤسس الدولة العباسية وَرِثَ الخلافة من بعده الخليفة أبو جعفر المنصور، وإذ بهؤلاء المنافقين يحيطون به، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذا بهم يوهمونه بأنه فوق القانون، حتى لقد جعلوه يوماً يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه.

ويتأمل جعفر الصادق كل هذا، ويستعيذ بالله منه، فما هكذا كان الإسلام الذى بَشّرَ به جده الأعظم محمد ﷺ، واستمر على هَدْية الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم.

كان أبو القاسم هذا الطفل الصغير يرى فيما يرى دار جده الإمام جعفر وقد ازدحمت بالناس من كل أصقاع الدولة الإسلامية، وكأنه واحة وارفة الظل وسط هجير الصحراء.

ومما رأى وسمع تأكد أنه لم يجمع الناس على حب أحد فى زمانه مثلما أجمعوا على حُب الإمام جعفر الصادق، فإلى جانب ما كان يتسم به من سمات شخصية، من صفاء نفس، وسعة أُفق، ورهافة حس، واتقاد ذهن، وطيبة قلب تلتمس الأعذار للناس وإلى جانب كل هذا كان ذا علم وفضل. . علم الدنيا، فقد قيل : إنه كان أستاذا لجابر بن حيان. . وعلم الآخرة، حيث كان أستاذاً لأبى حنيفة النعمان، أحد أصحاب المذاهب الأربعة.

إن هذا الجد الصالح كان يُلقن أبناءَهُ ـ ومنهم محمد أبو القاسم الطيب ـ المبادىء والقيم الصافية للإسلام، وكان يُذَكِّرُ الأبْناءَ والأحفاد بأنهم يجب أن يكونوا على مستوى نسبهم إلى النبى الأعظم محمد ﷺ فى العمل والسلوك، وفى الآداب والأخلاق، وفى العلم والفضل، فَهُمْ ممَّنْ أبْعَدَ الله عنهم الرجس وطَهَّرَهم تطهيراً. كما يذكرهم أن جدهم لأُمِّه هو خليفة رسول الله ﷺ، أبو بكر رضى الله عنه، وأن جدهم لأبيهم هو الإمام على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه. وهو نسب لايجتمع لغيرهم. ويذكرهم كذلك بنصيحة أبيه الإمام الشهيد محمد الباقر، وهى: «ما دَخَلَ فى قلب امرئ شىء من الإثم إلا نقص من عقله مثل ما دخله الكبر. .» ويذكرهم بنفسه حين زَهِدَ فى كل متاع للدنيا حتى عزف عن الخلافة، قائلاً: «مَنْ طلب الرياسة هَلَكَ». وبرغم هذا ظلت الرياسة تطلبه وهو على رأيه رافضٌ.

فى هذا المناخ الطاهر النقى الصالح وُلد القاسم الطيب وتنسم منه حياته الأولى، حتى إذا أصبح فتىً صغيراً نشأ فى ظل هذه الأفكار العظيمة وعاش، فكان مثالاً للطهر، والنقاء، والتواضع، مع الإيمان والتقوى. وهى خصال ليست غريبة على المنتسبين للبيت النبوى الشريف.

مات أبوه محمد بعد أن بايعوه بالخلافة، فهى حق له. استمده من جَدَّيْهِ الحسين والحسن. هذه الخلافة التى رفضها من قبل جده جعفر الصادق. ليتجدد الأمر بعد ذلك مع ابنه محمد أبى القاسم الطيب، بحيث نُودِىَ به أميراً للمؤمنين ولكن العباسيين ـ وقد أخذتهم أُبَّهة الحكم وزينة الحياة ـ أنكروا على أبناء عمومتهم ذلك، حتى مات محمد، ولكن لم تمت مبايعة أولاد جعفر وأحفاده بالإمامة والخلافة، فهناك فى مصر كان قاسم الطيب، الذى جَاءَهَا مع مَنْ جاءَ فراراً من ظلم وعسف وطغيان العباسيين. ومن قبلهم الأمويين.

وطبيعى أن تلاقى فكرة إمامة القاسم الطيب وخلافته قبولاً وارتياحاً عند جموع المسلمين المتشيعين لآل البيت الشريف، فبايعه أهل مكة، والمدينة، والكوفة، وقزوين، وطبرستان، وبلاد الديلم، وكَاتَبَهُ أهل البصره والأهواز بأنهم موافقون على خلافته، بل إنهم حثوه على الظهور، حيث كان قد اختفى سنوات، ولذلك طالبوه أن يضع حداً لهذا الاختفاء المتعمد.

وتناقل الناس الخبر، وما كان مختفياً أصبح واضحاً، ووصل الخبر إلى أسماع العباسيين، فأغضبهم ذلك، إلى درجة أن أمر الخليفة العباسى بالتشدد فى طلب الإمام القاسم الطيب، والبحث عنه فى كل أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وتسليمه حياً أو ميتاً، فقد أصبح خطراً يهدد استمرار دولة بنى العباس، وهذا الخطر ينبغى القضاء عليه، خاصة أنه قد وضح للجميع أن الأتباع والأشياع يتزايدون يوماً بعد يوم.

ويروى لنا يحيى بن الحسين في كتابه «تاريخ الأئمة» عن أتباع الإمام القاسم الطيب هذه القصة: «ضاقت بالإمام القاسم الطيب المسالك فى مصر، واشتد الطلب عليه من العباسيين، وبحثوا فى كل مكان، وفى كل بيت، وفتشوا حجرات كل بيت، مع أننا كنا مختفين معه خلف حانوت إسكافى يقع قرب مشهد السيدة نفيسة. ووصل الأمر إلى أنه نُودى نداء كان يبلغنا، هو: بَرِئتَ الذِّمَّةُ ممّن آوَى القاسم، وممن لا يدل عليه.. ومَنْ دلَّ عليه فله ألف دينار..»

والغريب أن الاسكافى كان يسمع ذلك ولا يَعْرهُ أَدْنَى اهتمام، بل كان يعمل مستغرقاً وكأنه لايسمع شيئاً، وهو فى واقع الأمر يسمع كل شىء، حتى المكافأة التى مقدارها ألف دينار. ولكنه لايريد أن يفشى سر القاسم الطيب الذى أحبه وأخلص له، حتى إذا دخل على الإمام وأتباعه هذا الإسكافى المخلص قالوا له: أَمَا ارتعت؟ فيرد الإسكافى: «مَنْ لى؟ وما ارتياعى منهم؟ حتى لو قُرضْتُ بالمقاريض.. وهل هناك أغلى من إرضاء رسول الله ﷺ فى وقايتى لولده بنفسى..». ولعله خيرٌ مثال لتفانى المصريين فى حب الرسول الكريم وآل بيته ومنهم ذلك الإمام القاسم الطيب.. ولكن برغم ذلك كله، فقد مات هذا الرجل الصالح ولم يتول الخلافة، شأنه شأن أجداده.

* * *